بائعـــةُ الفِئران
The mice seller

رُبَّ ضارةٍ نافعةٍ

ولـرُبَّ نازلةٍ يضيق بهـــــا الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يظنها لا تُفـــرجُ

الإمام الشافعي

بائعةُ الفئرانِ

أدركت صاحبة البيت الحاجة بهية، أن طعامها ينقص، وليس معها أحد، تحسست كل مكان الأرض والجدران، وما أن رأت جحراً؛ تيقنت أن هناك من يعيش معها في حجرتها، أرواح شريرة تسرق طعامها ليلا وتقرض ثيابها .

بعدما عسعس الليل وعلى حين غفلة استرق سمعها حركة ليلية، فتسحبت معتمدة على عصاة غليظة تعتمد عليها كلما غدت وراحت، دفعت الباب بقدمها بتؤدةٍ؛ فازدادت الحركة، كأنما جيش جرار فرَّ هارباً داخل خنادقه خوفاً من خطر قادم .

دلفت وهي تتوجس خيفة، ويطحنها الألم طحناً، فهي تتذكر نقص الأطعمة وقرض ملابسها؛ فتأكلها الحسرة ، تأكد لها أن هذه جحور فئران حينما لمحت ذيلَ فأرٍ ينسحب داخل جحر.

عادت إلى مخدعها، والألم يعتصرها عصراً، تكذ على أنيابها، واضعة رأسها بين كفيها تفكر وتفكر، تتساءلُ : كيف الخلاص من هذه الجيوش الجرارة، والتي اتخذت من جحورها سكنات عسكرية محكمة ؟

السيدة بهية نقص من عمرها سبعون سنة، لاتمتلك من حطام الدنيا شيئاً غير حجرة ذات طرقة مؤدية إلى الباب الخارجي، ونهايتها حمام، وليس عندها من الأبناء ما يغنيها عن السؤال، وهي لا تسأل الناسَ إلحافاً، ولكن يغدق عليها كل من له قلب وألقى السمع وهو شهيد ...

اهتدت لفكرة وهي أن تقفل هذه الجحور بخرقٍ بالية من بقايا أثمالها المتهالكة وما أكثرها، وارتاح بالها بعدما قفلت فوهاتها كلها،

وقد تصبب عرق جبينها، وامتقع لونها وتناثر شعرها الأبيض، وجلست أرضاً ، قائلة : لعنة الله على الفئران .

دخلت حجرتها صباحا، وكان الاطمئنان يحيط بها من كل جانب، وبينما هي تدلف للداخل، سبقها سمعُها يتحسس أي حركةٍ، وامتد بصرها يستكشف أثمالها في فوهات الجحور التي كلت وملت في إغلاقها، وإذ تسمع جرجرة وحركة أكبر من ذي قبل ، وتجد أثمالها خارج الجحور، فكانت مُفتحة فوهاتها تبتلع أي شيْ؛ فاهتزت العصا إثر ارتعاشةٍ تملكت يدها وسقطت أرضاً .

شرعت تتحسس كلَّ شيء، فالطعام كله قد نفد سوى قطع مما كان صلباً منه، وملابسها صارت أثملا مقطعة تفترش الأرض بعدما كانت معلقة على حبلٍ مشدودٍ في ركن غرفتها .. جلست باكية حزينة آسفة على الخراب الذي حل بكل شيء تملكه ، وما جادت به أيادي الخيرين من الناس .

جاءتها سعدية كعادتها ، وكانت جارة لها ، تسأل عنها كل فينة وأخرى ، فوجدتها حاسرة باكية ، تذرف عيناها المسهدتان ؛ فأوجفت خيفةً قائلة :

- ماذا بكِ ؟ أأصابكِ شيء ؟!

فَعَلَا بكاؤها وازداد نحيبها، وغمغمت بكلماتٍ غير مفهومةٍ، وما لقطت أذناها سوى (ذيل طويل ينسحب داخل جحر) ، فقالت في نفسها :

- ماذا أصابها ؟ أأصابها مسٌ بعقلها ؟ .. ورددت : ذيل طويل ينسحب داخل جحر... !!

فسألتها : ذيلٌ، أيُّ ذيلٍ .. !!

فردت بامتعاض : يعني حيكون ذيل إيه ... ذيل بقرة ؟!

جحظت عيناها ، وآثرت التحدث بعينيها فقط .. وحدثت نفسها :

- بقرة داخل جحر.... !

نهضت سعدية وقدمت ما جاءت به من أطعمةٍ ، رغبة في الانصراف .. فأبت أن تأخذ شيئاً !.

تساءلت في غضبٍ : لماذا ؟!

قالت : لأن الفئران ستأكلها كلها .. !

فضربت على صدرها قائلة :

- فئران .. أعندكِ فئران ؟!

- قالت : ألم ترين ثيابي ممزقة، ادخلي الحجرةَ وشاهدي بنفسكِ ؟

وما أن فتحت سعدية بابها سمعت الركض والجري؛ فأوجفت خائفة (فأوجست في نفسها خيفة)، وقفلت مهرولةً. وقد أشارت عليها بأن تأتي إليها بمصيدة فئران ، وساعدتها في وضعها بالحجرةِ مفتوح بابها ، وبداخلها طعمٌ ، ليلاً ...

وفي الصباح تفقدتها، وقد جحظت عيناها متسائلة : لقد ملئت عن آخرها ، وأشد ما أدهش الحاجة بهية أن وجدت داخلها فئراناً بيضاء، حسبتها أرانب في باديء الأمر ؛ فندتْ منها صرخة استغاثة تحمل في طياتها الفرح والحُزنَ معاً، إنها أرانب ولكن لاتختلف عن الفئران سوى لونها أبيض ، فذيولها طويلة ممتدة خارج قضبان المصيدة .

علمت سعدية بالخبر .. فأطلقت على فئران الحاجة بهية : « فئران بهية البيضاء « وشاع الخبربأن الحاجة بهية لديها فئران بيضاء، فصار الناس يتندرون ويتضاحكون، ووصل الخبرُ لطبيبة القرية ، فما كان إلا أن اتصلت مبلغة مركز البحوث بكلية الطب؛ فجاءوا وحملوا المصيدة وما فيها وأنقدوها مبلغاً من المال ... ! وأعطوها خمس عشرة مَصيدة، واتفقوا معها على أسعارها، وأخذت تُساومهم في أثمانها .. !!